الحلقة (١٤)

من المعلوم أن الخلق أجراه الله على نظام دقيق،يمكن الانتفاع منه، فلو كان الكون غير متسق أوغير منتظم، لم يستطع الناس الاستفادة منه، لأنهم لا يمكن لهم التنبؤ بما يكون، والنتائج غير مضمونة، لكن لما كان هناك انتظام في الكون أصبح الإنسان قادراً على معرفة القانون، إذا فُعلت الأسباب الفلانية يترتب عليها النتيجة الفلانية مثلا، بقدر ما يعرف الإنسان هذه السنن يكون أكثر قدرة على التحكم والسيطرة في الحياة الاجتماعية، وكما أنه حصل للإنسان فتوحات للتحكم والسيطرة في المجال الطبيعي والكوني؛ فكذلك حصل له فتوحات في التحكم في السلوك الإنساني، سواء كان سلوك الأفراد أو المجتمعات، عن طريق التعرف على هذه القوانين، التي سماها الله عز وجل السنن، فالله اقتضت حكمته أن يجري أفعاله وفق نظام معين، قال تعالى {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}..

والحديث النبوي أشار إلى سنن المجتمعات وما يظهر فيها، منبها المسلمين إلى هذا التشابه في سلوك المجتمعات، والذي يمكن من خلاله أن يستفيدوا منه في تقويم سلوكهم وضبطه، وتجنب المزالق التي انزلق فيها الآخرون، ولذلك ليس بمستغرب أن يأتي الحديث كثيرا عن بني إسرائيل في القرآن، هذا الحديث ليس تعريف ببني إسرائيل فقط، وإنما توجيه للمسلمين لكي يعرفوا سنن انحراف المجتمعات الدينية، المجتمعات الدينية تنحرف بالرغم من وجود الوحي والهدى.

ما أسباب الانحراف؟ هل لذلك الانحراف سنن؟

يَعجب المرء أحيانا مما يري من التركيز على دراسة أولئك الأقوام من قبل المسلمين، وكأن ما حصل منهم هو خصائص لهم لا تتعدى غيرهم، كأن يظنوا أن هذه خصائص لليهود أو النصارى أو لغيرهم، لا ليست المسألة هكذا، إنما المسألة أن الأنفس البشرية تجري عليها القوانين نفسها، وبالتالي المجتمعات الدينية تنحرف عن الهدى، ولذلك الانحراف سنن يجب أن تدرس وتعرف حتى لا يقع المسلمون في انحراف أولئك الأقوام، وهذا ما يفهم من توجهات الكتاب، ومن توجهات النبي صلى الله عليه وسلم، لما تأتي آية في سياق الحديث عن بني إسرائيل قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، هنا حديث عن واقع معين حدث في التاريخ، لكن هذا الواقع قابل للتكرار من قبل من لديه كتاب، من لديه وحي، قابل لأن يقع من المسلمين فيأمر بالبر وينسى نفسه وهو يتلو الكتاب، وهكذا في سائر الصفات التي وردت في أولئك الناس، هي تنبيه من الله لنا حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، نتعرف على السنن ونحذر من الوقوع في ذلك، في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟) وفي حديث آخر (لتأخذن أمتي أخذ

القرون قبلها شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله فارس والروم؟ قال من الناس إلا أولئك) هذا تنبيه من الرسول عليه الصلاة والسلام على السنن الاجتماعية للمجتمعات الحضارية، وعلى السنن الاجتماعية للمجتمعات الدينية، حتى ينتبه المسلمون من الانزلاق إلى اتباع دون تعقل وحكمة وبصيرة، وحتى تكون استفادتهم من الآخرين استفادة واعية وليست استفادة غافلة، ذلك هو فعل السنن، وذلك هو تأثيرها،

كما جاء في الحديث (الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده ما قاله بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) لما قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فهنا تنبيه من النبي صلى الله عليه وسلم للوعي بالسنن والحذر من الوقوع فيما وقع فيه الآخرون من انحرافات، لا يعني وجود القرآن والسنة أن المسلمين مبرؤون من الوقوع في سنن الآخرين ومشابهتهم، فذلك أمر يقع كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، هنا النظام الاجتماعي قد راعى هذه السنن..

الأمر الآخر الذي جاء **النظام مؤسس عليه ومراعي له تحقيق المصالح ودفع المفاسد**، وهناك مصالح أخروية، وهناك مصالح دنيوية، وقد راعى الإسلام تلك المصالح كلها في توازن عجيب، أقام مصالح الدنيا على مصالح الآخرة بجعل الدنيا مطية للآخرة، فحرم ما يضر بها وزجرها عنه، وأباح لها ما ينفعها ودفعها إليه.

لذلك قسم علماء الإسلام المصالح المراعاة: **إلى ضرورية، وحاجية، وتحسينية،** لا يمكن أن يتم البناء إلا بمراعاته هذه المقاصد، فأساس البناء كله لا يقوم إذا ضاعت **المقاصد الضرورية،** التي **هي حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال،** فلو أن **المال** لم توضع الضوابط لحفظه لضاعت مصلحة الناس في هذا الجانب، لحدث خلل وفساد كبير في المجتمع، بقدر اختلال هذا الجانب ينعكس ذلك على وضع المجتمع، كذلك لو استهين بجانب حفظ **العقول** ماذا سيترتب من الدمار والخراب؟ كذلك حفظ **النسل** لو لم تعمل الضوابط له لحدث خلل كبير في المجتمع، وحفظ **النفس** أيضا، لو أُهدرت النفوس وسهل إهدارها وقتلها لحدث فساد كبير، وحفظ **الدين** الذي به قوام المجتمع وقوام النظام الأساسي، فكانت هذه مصالح ضرورية.

هناك المصالح الحاجية التي لو منع الناس منها لدخلوا في حرج شديد، ولا يمكن أن تكون حياتهم سعيدة، فلو فرض أنهم منعوا من **البيع والشراء** أونحو من ذلك، ماذا سيحصل من المفاسد في حياتهم والضيق والحرج؟

كذلك المقاصد التحسينية التي تجعل الحياة حسنة وجميلة، **كبر الوالدين وإفشاء السلام وإطعام الطعام** ونحو ذلك من المحاسن التي تجعل الحياة جميلة، ذلك أن الإسلام راعى إلى جانب العدل راعى الإحسان، فلابد من الإحسان في الحياة، فلا يكفي أن نعيش الحياة بشكل فيه استقامة فقط فلا بد

أن تكون جميلة وحسنة، وهذا ما يفعله الإسلام إذ أنه يجمع بين العدل والإحسان، ومن تأمل في أوامره ونواهيه وجد أن التوحيد والعدل والإحسان تسري في كل جزئيات الدين وفي كل الأوامر والنواهي والتصرفات، ولو أن الناس أقاموا الدين على وجهه لكانت حياتهم جمال وبهاء وسعادة وبشرى، ولكن الناس يعيشون على الأرض، تظهر الشهوات، يظهر التنافس، تظهر الأحقاد، والمحن، والمصائب، فبالتالي هذه تؤثر فلا يعمل النظام عمله الكامل، فلو عمل عمله الكامل لكانت الحياة كما أشار الله عز وجل (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم).

الجانب أو الأساس الآخر أساس الإنسانية، فالنظام الاجتماعي هو النظام العام الذي يدخل في كل أبعاد الحياة وكل أنظمتها كالنظام الاقتصادي والنظام الإداري والسياسي ونظام الدعوة والاحتساب ونظام العبادة ونظام الأخلاق وغير ذلك، هنا نتكلم عن الأسس العامة.

أيضا **أساس الإنسانية**، هذا من الأسس التي روعيت، هذا التشريع تنزل ليهدي الإنسان، وقد راعى طبيعة الإنسان،

فالإنسان حر ومكرم ومسؤول، ولو لم يكن بهذا الشكل لما جاء التشريع له، لأنه يتحمل المسؤولية، وعاقل يعي ما يكلف به، وحر غير مستعبد، **ومكرم** قال تعالى { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } ليس فقط المسلمين، { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }، وتساويه من حيث الأصل **الحرية** قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

إذن ما يعرض للإنسان من عوارض في حياته ليس سببا لتفضيله على الآخر، من العوارض الماضي في التاريخ أن الإنسان يتعرض للرق، فتعرضه للرق لا يهدر إنسانيته، حينما جاء الإسلام كان الرق على أشده..

ومما يعرض للإنسان: الفقر والغنى، وأيضا المرض فيكون معاقا ومشوها ونحو ذلك، فكل هذه العوارض لا قيمة لها في التفاضل بين الناس، أساسا من حيث إنسانيته،

أما التفاضل عند الله بالتقوى، والتقوى مرجعها إلى الله ومردها إليه، لا يعلم القلوب إلا هو،

وأما التفاضل الدنيوي الذي سبق الإشارة إليه عند الحديث عن الفطرة قال تعالى {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}

هذا التفاوت في القدرات والرزق والعمل لا يجوز من خلاله التفاوت بين البشر، بمعنى الترفع بعضهم على بعض، واعتبار بعضهم أفضل من بعض، فهذا لا يجوز، وإنما هي مواهب خص الله بعضهم دون بعض بها لكي تكتمل حياتهم، لو لم يوهب البعض زراعة أو صناعة أو تعليما أو سياسة أو عسكرية

أو نحو ذلك لكانت الحياة صعبة، كلهم سيكونون بحالة ..

ومن المعلوم من استقراء المجتمعات يبين أنها على مستويات ثلاث:

١. المستوى العام وهو أكثر عددا.

٢. المستوى المتوسط وهو أقل عددا.

٣. من يكن في القمة،

من له موهبة القيادة في أي جانب من الجوانب، وهؤلاء قليل، الذين يكون لديهم المواهب القيادية، لذلك نجد القياديين محدودين، والغير قيادي أكثر عددا، والعامل أكثر أيضا وهكذا، فإذن هذا الشيء لا يجيز للمسلم أن يتفضل بموجبه على الغير، إنما كل بحسب قدرته وطاقته يخدم ويكتسب، فلا شيء في تفاوت الكسب لأنه مرتبط بتفاوت البذل والقدرة، وهذا في الشيء المباح التفاوت فيه، ولكن التفاوت العنصري بمعنى امتداح إنسان على حساب إنسان بموجب تحصيله الدنيوي أو بموجب نسبه أو علمه أو غير ذلك ،أن يرى نفسه أفضل الآخرين أو يتباهى عليهم لا، فالفضل مرده إلى الله، قد يكون من لا يعلم علما أفضل عند الله لما علم الله في نفس هذا الذي أوتي علما من الكبر أو الغرور أو نحو ذلك من الأمور التي تعرض للنفوس في دواخلها وتضره عند الله، فجعل الله التفاضل إليه فقال تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، لذلك كان على رأس البشرية الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، عند الله وليس عند الخلق يصنفون، فالله هو الذي يصنفهم ويفضلهم كما يعلم من ذواتهم.

هذه خمس أسس ١/ الإيمان ٢/ الفطرة ٣/ السنن ٤/ المصالح ٥/ الإنسانية.

كل منها يثمر إثمارا عظيما في الحياة الإنسانية، ويؤدي إلى خير البشرية، لو أن الناس راعوها تمام المراعاة كما وجههم إلى ذلك الله تعالى، لكن الإنسان يغلب عليه هواه، لذلك حينما يستغني أي كان نوع الاستغناء يظهر عليه الطغيان إلا من رحم الله، ولا يمكن للإنسان أن يشعر بالاستغناء إلا إذا غفل عن الله، أما إذا كانت مراقبته لله حاضرة في قلبه فلا يشعر بالاستغناء ومفتقر إلى الله في كل لحظة من اللحظات، فلن يكون مستغني إلا بالحق، لكن لا يكون مستغني بنفسه، فإذا شعر بالاستغناء بنفسه فقد طغى، قال تعالى {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} استغنى بقوته ونشاطه أو ماله أو بسلطانه أو نحو ذلك من الأمور، عندما يشعر الإنسان أنه استغنى بالباطل بأي نوع من أنواع الباطل فيتحول إلى الطغيان وسيطرت عليه نفسه وأطغته وأعجبته، لكن المفترض بالمسلم أن يكون استغناؤه بالحق، وأن يشعر بافتقاره إلى الله في كل لحظة من لحظات عمره، دائم المراقبة لقلبه لا يغفل عن ذلك طرفة عين ولا أقل ولا أكثر.